الإرث الروحي العالمي والمشترك الإنساني الجامع

محسن العوني ■

يُمثّل قولهُ تعالى الوارد في سـورة الحجـرات (الآية: 13): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ نداءً عامّا لا يستثني أيّ امرئٍ في أيّ زمان ومكان، كأنّه ﷻ ينادي ـ من خلال ذلك البيان ـ على سائر خَلْقه، ويستثير فيهم الإدراك والإحساس؛ فهو يهيب بهم أن يتساموا، ويحثّهـم على الانخـراط في معـارج الحكمـة والتعقّـل، ويبثّ في صدورهم السكينة ليُذهب عنهم الحرج، عندما تضيق دائرة نظرهم ويتقلّص حقلُ إدراكهم. ذلك الحرج الذي يجعلهم لا يرون المؤتلف الذي يشدّ بعضه بعضاً، ولا يفطنون لسرّ التعدّد والتنوّع والاختلاف وهو خير ما في الوجود، فيدعوهم إلى «التعارف»، تلك القيمة التي تضيء ـ بقِدَمها نفسه ـ حداثتنا نفسها[1].

لا مظنّة أن اشتقاق مصطلح «دين» في اللّاتينيّة يحيل على الالتباس بشأن ظاهرة الدين وعالميّتها، وعلى واقع التعدّد الهائل

1 ـ أدونيس، **موسـيقى الحوت الأزرق (الكتاب، الهوية، العنف)**، الطبعة الأولى، دار الآداب، بيروت 2002، ص5.

■ باحث ومترجم من تونس.

في أشـــكال التديّن؛ بَيْـــد أنّ المفردة تحفل بقواســـم مشـــتركة لا مجال لإنكارها أو التغاضي عنها، فيمكن أن نستخلصَ الربط والوصل والشَّدّ من مصطلح «دين»، بما يخلّفه مِنْ جمْـــعٍ بين الناس، يصل فرقتهم، فيجدون فيه الســـلوى لواقع تشـــتّتهم، مثلما يربطهم بالمولـــى ﷻ. كما يمكن أن نستخلص من دلالته الجَنْي والقطاف والحصاد، وهو ما يحيل على عمليات المتابعة والرّصد والمراقبة والمعاينة. وهما أثران اشتقاقيّان يكشف كلّ منهما الملمح المزدوج للدّين: الملمح الذّاتـــي الفردي، المتعلّق بالتقوى والإيمـــان، والملمح الموضوعـــي الجماعي، المتعلّق بالعبادات والشـــعائر المنتظمة بصفةٍ رسميّةٍ معلنة.

ومن هنا كانت في العالم أديانٌ كثيرة متنوّعة، يسعى جميعُها إلى فكّ لغز الحياة، وكشف سرّها المستعصي عبْر تساؤلات وجوديّة، تستفسر عن البدء والمصير، وعن الحكمة والقصد من كل ذلك، وعن جدوى المعاناة والآلام التي يكابدهـــا الخَلـــق. وإن كان ثمّة مَنْ يذهب إلـــى أن لا بداية ولا نهاية، وإنما سيرورة وتحوّلٌ وعبور من وجود إلى آخر، ومن حياة إلى أخرى في دورة لا تهدأ.

على مدى قرون عرفت الإنسانيّة حروباً سبّبتها النزاعات بين الأديان، أو بشكل أدقّ سبّبها التوظيف السياسيّ لهذه الأديان، خاصة وأنّ «عالمنا يشهد صراع الجهالات لا صراع الحضارات والأديان» بعبارة إدوارد سعيد، جهالات حذّر منها ـ ببلاغةٍ مستشرفةٍ ـ الحديثُ النبويّ الشريف: «**يا أيها الناس، إنّ الله قد رفع عنكم عُبِّيَّة الجاهليّة وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، ورجل فاجر شـــقيّ هيّن على الله، والنّاس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب**» (حديث حســـن رواه الترمذي). وضمن هذا السياق تســـاءل اللاهوتي الألماني السويســـري هانس كونغ: «ماذا يمكن أن يحدث إذا كفّ كلّ ممثّلي الأديان الكبرى عن إذكاء نيران الحروب، وشرعوا في الدعوة إلى التوفيق والسّلام بين الأُمم؟ ماذا يمكن أن يحدث إذا لـــم تعد مطالب العـــدل الاجتماعي وحمايـــة الطبيعة تلقى

التجاهل، بل الدعم بقوة الإقناع الأخلاقي؟ وماذا سيعني كل هذا لمئات الملايين من البشر على هذه البسيطة؟»[2].

وهو ما يجعل الأديان اليوم تسعى ـ أكثر من أيّ وقت مضى ـ إلى أن تتعايش وتتساكن بسلام، وتعمل معاً لِما هو خير وأبقى، مشدّدة على المشتركات الجامعة، ونابذة الاختلافات المفرّقة. فهي تسعى جاهدة لتُعلِّم المؤمنين بها، والمنضوين تحت لوائها، التسامح والاحترام حيال الذين يؤمنون بأديان وعقائد أخرى[3].

على مدى قرون عرفت الإنسانيّة حروباً سبّبتها النزاعات بين الأديان، أو بشكل أدقّ سبّبها التوظيف السياسيّ لهذه الأديان، خاصة وأنّ «عالمنا يشهد صراع الجهالات لا صراع الحضارات والأديان» بعبارة إدوارد سعيد.

كلمة سواء أو «خزائن الحكمة الكبرى»

وردت عبارة «خزائن الحكمة الكبرى» في بيت شعريّ بديع لأمير الشعراء أحمد شوقي:

الكتب والرّسل والأديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها

لافتة الأنظار إلى ما يشتمل عليه الإرث الروحي العالمي من الثراء الطافح والخبرة المتراكمة. فالإرث الروحي للإنسانيّة يُدخلنا إلى صميم كلّ دِين من الأديان الكبرى، من جهة علاقة كلّ منها بالآخر واستقلال بعضها عن بعض أيضاً؛ إذ يظهر أنّ التفاهم بين الأديان يحمل رسالة تفرّدٍ في كل دين بتقاليده، وكذلك بقابليّة الانسجام والتوافق بينها على السواء، بالنظر إلى القواسم الجامعة. ففي هذا العصر نحن في أمسّ الحاجة إلى انفتاح يبدّد الكراهية، ويزيل الخوف، ويشحذ الوعي بوحدة العائلة الإنسانيّة. إنه منهج الكلمة السواء الذي جاء به القرآن

2 ـ هانس كونغ، **الأديان العالميّة والروح العالميّة**، ضمن كتاب: **الإسلام وعالميّة حقوق الإنسان**، نصوص ترجمها واختارها محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، حلب 1995، ص 48.

3 ـ Anita Ganeri, Les religions, éditions Soline, France 1999, p. 8.

الكريم، الذي لا يلغي الاختلاف والتمايز والتعدّد بوصفها آيةً من آياته تعالى. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمـران: 64]. إنّ تغيّراً في تفكير الجنس البشريّ تحدثه روح الجماعة العالميّة: من شـأنه أن يبعث الأمل بـأنّ أنماط دورات الصراع يمكن تجاوزُها والترفّعُ عنها[4].

فبفضل مدوّنة روحيّة قائمة على العدل والإحسـان والمحبّة والتواصي بالحق يلتزم بها الجميـع، يمكن تجاوُز عقبة الفرقة، قـال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90]. فالتسليم بالتطابق العميق في المضمون الإنساني ـ الذي تتّسم به الثقافات الشـرقيّة والغربيّة ـ لا يلغي إطلاقاً الاختلافات والتمايزات في أسسها الداخليّة المحمودة. وعلى أساس قراءة متأنّية للأسفار المقدّسة يمكن أن نلحظ الكشـف عن إلٰه واحد بطرق تعبيـر مختلفة، الأمر الذي يقـود إلى تأمّل العوامل التي يجـب أن تجمع روحيّاً سـائر المؤمنين. أمّا بخصوص المتشـدّدين والغـلاة؛ فالواقع يقول: إنهـم حاضرون في جميـع الأديان!! وعليهـم أن يغيّروا عاداتهم البالية، ليتمكنوا من التعرّف على اختلافات الآخر المهمة ويحترموها[5].

فالإرث الروحي العالمي هو جامعٌ مشـترك لا يحقّ لأحـد أن يحتكره أو يفسّره على هواه: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة: 181]. وقد قال نجاشي الحبشـة ـ بعد أن سـمع من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مطلع سورة مريم ـ: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»[6]. ومن ثمَّ الإرث الروحي العالمي عنوانٌ واعـدٌ، ولاهوت تحرير جامع، يذكّر بالفَجر

4 ـ سهيل بشروئي ومرداد مسعودي، **تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة**، دار الساقي، الطبعة الأولى 2011، ص 274.

5 ـ Mohamed Abdelmoula, Islam Christianisme et Judaïsme à la lumière du Coran et de la Bible, éditions MTM, Tunis 2001, pp. 92-93.

6 ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 37.

الذي يعقبه صُبح، يريد أن يتنفّس لتتنفّس البشريّة الصعداء: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 17 ـ 18]. بناءً على ذلك ينتمي الإرث الروحي العالمي إلى تلك «القواعد» التي رفعها خليل الرّحمن إبراهيم بأمر من ربّه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ [البقرة: 127]. وقد جاء في الحديث الشريف: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ. وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**» (صحيحا البخاري ومسلم).

على أساس قراءة متأنّية للأسفار المقدّسة يمكن أن نلحظ الكشف عن إلٰه واحد بطرق تعبير مختلفة، الأمر الذي يقود إلى تأمّل العوامل التي يجب أن تجمع روحيّاً سائر المؤمنين.

إنّه بيت الجميع حيث تجد البشرية أمْنَها الشامل والكامل، بيتٌ يسع منها الجسد والروح، ولا يضيق عمّا كتب اللّٰه لها من التطوّر والاكتمال، وكأنّنا بالإنسانيّة مجسّدة في مريم الطاهرة عليها السلام يأتيها الوحي الإلٰهي همْساً: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۞ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم: 25 ـ 26]، وما تلك النخلة سوى شجرة النبوّة ورسالة الوحي والكشف، وما الرطب الجنيّ سوى الإرث الروحي العالمي الذي جاء ليكرّس الوحدة في إطار التنوّع والتعدّد، فلا يضلّ عنها إلا حسير قاصر الإدراك، وقد قال الشاعر سان جون بيرس: «وَحْده القصور الذاتي يهدّد إنسانيّة الإنسان»[7].

من هنا تأتي ضرورة التربية على الإرث الروحي العالمي نسجاً على منوال التربية على حقوق الإنسان، قياماً بحقّ الرحم الإنساني الواحد الذي صدرت عنه العائلة الإنسانيّة الكبرى؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

7 ـ في كلمة بعنوان «خلود الشعر» أمام لجنة جائزة نوبل (1969).

من هذا الباب نرى أنّ من واجب كلّ حريص على ما يجمع شمل البشرية أن يقرأ كُتب العالم المقدّسة بودٍّ وعطْفٍ، فإذا ما احترمنا نحن أديان الآخرين ـ كما نريـد منهم أن يحترموا ديننا ـ فإنّ دراسـة ديانات العالـم تغدو نوراً ونبراسـاً. هكذا تحدّث المهاتما غاندي عادّاً دراسـة الإرث الروحي العالمي واجباً مقدّسـاً يلحق بالعبادة؛ لأنّه من الشـروط الموضوعيّة لتحقيق المنعة الذاتيّـة والجلاء المعرفي، في عالـمٍ لا بديل فيه عن الحوار سـوى العنف، وعلينا أن ندرك أننا في عصر الراديكاليات فلا مناص من أن نختار لأنفسنا الموقع الأبقى والأرقى[8]. فما أشدّ غربة منازل الوحي اليوم! وما أشدّ ما يمتّ عالمها الرهيب إلى عالمنا! فما من شيءٍ وادعٍ لطيفٍ يحيط بالبصر والبصيرة ـ لينشر ورود الأمن والمحبّة والسلام ـ سـوى منازل الوحي التي تردّد أبداً: حيّ على الفلاح[9].

من جبال النور وصايا ومواعظ

كما ورد في الأثر جبل حوريب هو جبل موسـى، أو طور سـيناء حيث تلقّى كليم الله عليه السلام الوصايا العشـر، التي تُعدّ أرفع الآثـار وأبرزها في التراث الكتابي، وقد جاء فيها أنها «وصايا العقل الأساسـية في الإلزام، بحيـث لا يمكن أن يُعفـى أحد من الالتـزام بها»[10]. كما جـاء في العهد الجديد إجابة عن سؤال وُجِّه للسيد المسيح عليه السلام: «أي عمل صالح أعمل لِأرثَ الحيـاة الأبديـة؟» فأجاب: «احفـظ الوصايا»[11]. وقـد تبوّأت تلك الوصايا مكاناً عليّاً من الشـرائع الإلٰهيّة الموجّهة للإنسـان الذي ينشد الحياة الأخلاقيّة؛ فهي «خلاصة القوانين الأساسـية للتصرف الإنسـاني، فاليهود والمسـيحيون يرجعون إليها؛ لكي يتعلّموا منها كيفية السلوك في

8 ـ من كلمة أحميدة النيفر في «مجلة عمران» وردت في موقع «فريق البحث الإسلامي المسيحي».

9 ـ محمد الراشد، **فراشات حول المصباح الإلٰهي.. مشروع رؤية ذاتيّة لإشكالية الإنسان المعاصر وحضارة المستقبل**، الطبعة الأولى، دار طلاس، دمشق، 1991، ص 82.

10 ـ **التعليم المسيحي للشبيبة الكاثوليكية**، لمجموعة من الأسـاقفة، مكتب الشبيبة البطريركيّة، بكركي، 2012، ص 192 ـ 193.

11 ـ إنجيل متّى، 19: 16 ـ 17.

الحياة الأخلاقية»[12]، وقد قال عنها البابا يوحنا بولس الثاني: «ليست الوصايا العشر فرائض ألزمنا بها الربّ عشوائيّاً؛ إنها تؤمّن اليوم وفي قادم الأيّام حياة العائلة الإنسانية ومستقبلها»[13].

فهي وصايا تجاه اللّه: «لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي؛ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحوتاً، وَلَا صُورةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهنَّ...». وهي وصايا تجاه القريب: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ». وكذلك هي وصايا تجاه المجتمع: «لَا تَقْتُلْ. لَا تَزْنِ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ. لَا تَشْتَهِ بَيتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبدَهُ، وَلَا أَمَتهُ، وَلَا ثَورَهُ، وَلَا حِمارَهُ، وَلَا شَيئاً مِمَّا لِقَرِيبِكَ».

نرى أنّ من واجب كلّ حريص على ما يجمع شمل البشرية أن يقرأ كُتب العالم المقدّسة بودٍّ وعطْفٍ، فإذا ما احترمنا نحن أديان الآخرين ـ كما نريد منهم أن يحترموا ديننا ـ فإنّ دراسة ديانات العالم تغدو نوراً ونبراساً.

من جانبٍ آخر ألقى المسيحُ عليه السلام موعظتَه الشهيرة المعروفة بموعظة الجبل عام 28م بالقرب من كفر ناحوم: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ؛ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لِلْحَزَانَى؛ لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ؛ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى البِرِّ؛ لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ؛ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. طُوبَى لِأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ؛ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللّهَ. طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ؛ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللّهِ يُدْعَوْنَ. طُوبَى لِلْمَطْرودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ؛ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ»[14]. لقد جاءت الموعظةُ حافلةً بالوعود وتعزية لأرواح المعذّبين والمضطهَدين والمستضعَفين المظلومين الظامئين للعدل في كل زمان ومكان.

12 ـ **التعليم المسيحي للشبيبة الكاثوليكية**، ص 192 ـ 193.

13 ـ المرجع السابق نفسه.

14 ـ إنجيل متّى 5: 3 ـ 11.

وَوَرد في خطبة حجّة الوداع التي ألقاها المصطفى ﷺ يوم عرفة في جبل الرحمة، وشهدها مائة وأربعة وأربعون ألفاً من الناس في مشهد عظيم: «**أيها الناس إنّ دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت؟! اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها... أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تـــراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشـــهد**، قالوا: نعم، قال: **فليبلغ الشاهد الغائب**». جاءت خطبة الوداع بلاغاً تأسيسيّاً معلنة بدء مرحلـــة جديدة من تاريخ الإنســـانية، أبرز ملامحه القطعُ مع ممارســـات الجاهلية. ما زالت الإنسانية في أمسّ الحاجة أن تتفيّأ ظلال ذلك البلاغ بعد أن اصطلت بنيران أوضاع عالمية يســـودها منطق القـــوة لا قوة المنطق. وهل الإنســـانية إلا أمانة لـــدى العقلاء الذين هـــم «ورثة الأنبيـــاء» كما جاء في الحديث الشريف.

«الوصايا العشـــر» و«موعظـــة الجبل» و«خطبة حجّـــة الوداع» جاءت جميعها من فوق مرتفع مـــن الأرض، وتضمّنـــت دعوة حارّة إلـــى الترقّي والارتفاع والتســـامي إلى مراقي الأمر الإلٰهي، نحو أرضيّـــة جامعة للّقاء والتعاون: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: 64].

يقتضي السعيُ إلى اقتفاء «توق الإنسان إلى الارتقاء والسموّ» الوقوفَ على آثار الإرث الروحي للإنسانية، بما يكشف تطوّر الأديان وتوالد بعضها من بعض مجسّـــدة كدح الإنســـان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشـــقاق: 6]. فالمتتبّـــع لأثر حضور الأديان في التاريخ البشـــري يلحظ خضوعها بدورها إلى قانون الترقّي بقصد إحداث النقلة المنشـــودة على مستوى الوعي، ومحاربة كل تفكير سقيم. أمّا على مستوى الواقع فقد سعت الأديان إلى تأسيس منظومة قِيم ترتقي بالتعامل الإنساني إلى مراقٍ من شـــأنها أن تؤســـس منظومة خُلقيّة، تضبط ما هو مقبولٌ و«مشـــروع»، وما هو مرفوض و«غير مشروع».

نجد في الإسلام «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**» (الحديث الأربعون للنووي)، وفي المسيحيّة: «كل ما تريدون أن يَفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم» (إنجيل متّى، 7: 12)، وفي اليهوديّة: «لا تفعل بجارك ما تكرهه أنت؛ هذا هو كل التوراة والباقي تفاصيل» (التلمود، شبات 31أ)، وفي البوذيّة: «لا تؤذ الآخرين بأشكالٍ تجدها أنت مؤذية لنفسك» (أودانا ـ فارغا، 5: 18)، وفي الزرادشتيّة: «الطبع الجيّد وحْدَه هو الذي يتجنّب الفعل بالآخرين كل ما ليس طيّباً بالنسبة إليه» (دادستان إي دينك 94 ـ 5)، وفي عقيدة السيخ: «عامل الآخرين كما تعامل نفسك» (آدي غرانث)، وفي الطاوية: «عدّ مكاسب جارك مكسباً لك، وخسارة جارك خسارة لك» (تاي شانغ كان ينغ بيين)، وفي الكونفوشيوسية: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك» (المختارات، 15. 13)، وفي الهندوسيّة: «هذا هو مجمل الواجب: لا تفعل بالآخرين ما يسبّب لك الألم إذا فعلوه بك» (المهاباراتا، 5: 1517).

على مستوى الواقع فقد سعت الأديان إلى تأسيس منظومة قِيم ترتقي بالتعامل الإنساني إلى مراقٍ من شأنها أن تؤسس منظومة خُلقيّة، تضبط ما هو مقبولٌ و«مشروع»، وما هو مرفوض و«غير مشروع».

يخبّئ هذا الإرث الروحي العالمي الواسع جوهرة مضيئة وهي المؤتلف الإنسانيّ القادر على الجمع والوصل من أجل بناء القِيم الكونيّة، وقد وفّق الدّالاي لاما ـ رغم منفاه ـ في فكّ الارتباط بالعقائد الخصوصيّة، ليغدو إنسانيّاً في نظره الفكريّ والروحيّ، ملخّصاً الأمر بقوله: أحبُّ كلمة دين؛ لأنها تستبطن في جوهرها معنى الربط والوصل وجميع ما يشدّ النّاس بعضهم إلى بعض.. إنها بالنسبة إليّ قيمة مهمة، وإن كنت صاحب دين فلن يكون سوى دين الأخوّة والمحبّة[15].

على مستوىً آخر نعثر في مقولات المتصوّفة وتأويلاتهم على تدشين لتلك الرحابة، ورغبة في تجاوز الحدود الفاصلة بين عباد الله لإقامة الجسور

15 ـ Magazine «Lire», Entretien Edgar Morin (Novembre 2017), n 460, p. 49.

الواصلة بين الخَلق. وســواء تعلّق الأمر بابن عربي أو الحلّاج أو جلال الدين الرومي أو إغناطيــوس دي لُويُولا أو المعلم إيكهــارت أو تيريزا الآفيلية؛ ففي أحوالهم ومعارفهــم الذوقيّة ما يصبّ في معنى الرحابــة والرحمة، وما يمتّن ذلك الميثاق الجامع بين الناس في المشــارق والمغارب. وهو ما يعكس عمق إحساس الإنسان بوشــائج القربى، وحاجته الروحية إلى توحّد يذيب الفوارق ويضمّد الجراح؛ لتتوحّد الإنســانية على قلب رجل واحد، وهــو ما نرى آثاره الجليّة في تحولات تاريخيّــة وفكريّة ودينيّة بدأت تظهــر، تحرّض على الأمل والرجاء في غد مأمول.